

"مسجد مئذنة الشحم"

770هجري/1368ميلادي

ل الباحثة نبيلة القوصي

إخوتي قراء زاوية "معالم و أعيان":

تمتاز دمشق بتنوع معماري جميل، و بأشكال تراثية مختلفة تدلنا على تنوع حضارتها ... حيث نرى توزع الجوامع و المساجد بين حاراتها و أحيائها بأعداد كبيرة، تدفعنا للتساؤل عن سر ذلك؟ و جواب هذا السؤال نجده في أحاديث المصطفى عندما أخبرنا قائلاً: ستكون دمشق أكثر المدن مساجداً.... صلى الله عليه و سلم، فجمال و جلال هذه المدينة قد انعكست فيه هذه الأحاديث الشريفة، حيث وُجد ذاك الإنسان الفعال المؤثر في الأرض بالخير على مر التاريخ، ليرسخ معاني الرقيّ المحمديّ الرائع الذي قال: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق" فوق أرض عريقة ستشهد نزول سيدنا عيسى عليه السلام .

في نهاية القرن السابع للهجرة و مطلع الثامن، قامت دولة المماليك، لتصبح دمشق مركزاً كبيراً من مراكز الحياة الفكرية و الدينية، و عمل حكامها و بعض المياسير من أهلها على تعميرها أحسن عمارة، مقتدين بذلك منذ عهد نور الدين زنكي السلجوقي و حتى عهد صلاح الدين الايوبي من بعده ... رحمهم الله و جزاهم ألف خير لما بذلوا

....

تعالوا بنا نمضي معاً، على الطريق المستقيم، بين باب الجابية و باب شرقي، المعروف بسوق (مدحت باشا)، حيث نشاهد توزع الأسواق الفرعية و الخانات و المساجد من على جانبي هذا السوق الطويل، و عند محلة مشهورة باسم : (مئذنة الشحم)، نتوقف كسائحين متميزين، نستنطق العبرة و الفائدة من التأمل العميق لنسائم العراقة و التاريخ الحضاري الذي تركه ذاك الإنسان فوق أرض دمشق العريقة ..

وكمشاهدة أولية لهذه المحلة، نلمح في النهاية الشرقية لسوق مدحت باشا مسجداً مملوكي الوصف اشتهر باسم "مئذنة الشحم"، التي لم يبقَ منها سوى قسمها السفلي المنقوش عليها و المثبت فيه تاريخ البناء: 770 هجري/ 1368 ميلادي، أي في أواخر العصر المملوكي.



المئذنة ذات جذع مربع مشيد بالمداميك الحجرية ذات اللونين المتناوبين (بلقاء)، و يرتفع في رأس المئذنة جوسق اسطواني ..

و قد ذكر ابن عبد الهادي في كتابه "ثمار المقاصد" ، أن مسجد مأذنة الشحم في سوق مدحت باشا، و الذي يسمى أيضاً بمسجد السوق، هو مسجد صغير، فيه محراب لطيف و منارة حجرية مربعة، يُصعد إليها بسلم حجري من الشارع كُتب على حجرة بقاعدتها "الحمد لله .. عمل علي الكسار سنة 770 هجري".

و مؤرخ هذا العصر، الدكتور عبد القادر الريحاوي، في كتابه " العمارة العربية الإسلامية " ، ذكر في قسم الجوامع و المساجد المملوكية قائلاً : مئذنة الشحم تقع في المحلة المشهورة بهذا الاسم على الطريق المستقيم (بين باب الجابية و باب شرقي) .. بُنيت في عام 770 هجري / 1368 ميلادي، كما هو مثبت في الكتابة المنقوشة عليها، و لم يبقَ من المئذنة المملوكية سوى قسمها السفلي .



خلال جولاتنا السياحية المتأمللة لدمشق الرائعة نلمس تنوع الحضارات بحسب كل عصر و بَمَ امتاز و ما الخصائص التي طغت عليه ؟ و هذا المسجد أيضاً قد امتلك ميزاته الفنية المعمارية الخاصة به : كالتناوب باللونين، و ارتفاع المئذنة بجوسق ..

و إذا تساءلتم عن مميزات ذلك العصر (المملوكي) أجبناكم بأنه عصر ازدهار و نشاط فكري عمراي ثقافي بامتياز، بالرغم من الاضطرابات و الفوضى السياسية التي شهدتها البلاد تلك الفترة، ف الوعي الفكري كان هو الغالب على المجتمع الدمشقي، و لذلك شهد ذلك العصر نشاطاً هائلاً و رقيّاً بالعلم و الدين، و اعتُبر من العصور الزاهية المشرقة في التاريخ : بفضل العلماء الصالحين المصلحين ... و الوعي الفكري الكبير بين عامة الناس.

هذا هو عنوان الشام دمشق، فهلا تداركنا الأمر و سألنا المولى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؟



المصادر والمراجع:

. ثمار المقاصد / لابن عبد الهادي

. العمارة الإسلامية/ للريحاوي